ربيع الغوطة

للأمير مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي ومدير أملاك الدولة بدمشق

جلست في الدار في سفح « قاسيون » [1] أجيل الطرف في أرجاء الغوطة الفيحاء، وقد ازّينت للربيع وتبرجت وتجلت فتنة للناظرين. وجرت مياه بَرَدَى ومشتقاته صخّابة جرّافة، قد بجّسها شتاء هذه السنة المطار، بعد أن لبثت ثلاث سنين لاصقةً من الجفاف بأرض النهر، وهي تتنفّض وتتموّر كأنها ترتقب من يدفعها إلى جنان الغوطة دفعاً؛ ودبت الحياة في الأشجار الغبياء، فأرسلت عساليجها تتنشق أنفاس الربيع العليلة، واطالت غماليجها [2] تستقبل أشعة الشمس المنعشة، ونشرت أوراقها نهيٌ للبدوح وسائل الحياة وغضارة العيش

وبشّر اللوز باقبال الربيع فنوّر. وأعقبه المشمش فاشتمل زهراً وتضوع عطرا، وملأ جوّ الغوطة بهجة وإشراقاً. وغار التفاح والكمثرى والخوخ فمدن إلى الازهرار، وتلألأن بالنُّوار، وسكر الصفصاف المستحي فدلى أغصانه وتمايل، وانتصب الحور فصمّر خدّه وتثاقل، وعربد الجوز الدوّاح فنثر هُرَيراته [3] ذات اليمين وذات الشمال، وترزّن السرو الجبار المتشائم وصاح قائلاً كلنا للزوال. وابتسم الزيتون بأوراقه الخضر الحائلة، وقد نخرت أرومته السنون، وكسر فروعه الدهر الطحون. أما الرمان فلبث عارى الجسد ينتظر الدفء، فما ازدهى بنوره، ولا أشمل الجوّ بناره [1]

وجن جنون النباتات البرية، فنبتت بين الزروع وعلى ضفاف الجداول وفي كل أرض سبخة أو بائرة، فالخردل هجم على الحنطة فكساها من زهره حللا صفراً، والنرجس نجم في مياه المناقع ونثر فوقها درّاً وتبراً، وبدت شقائق النعمان بألوانها الزاهية، وتجلى الخشخاش بحمرته القانية، وتضوع البابونج والأقحوان، واستسرّ تحت جنبة [2] الآس والرمان

وشاركت الطير النبات فهبت تغرد بشتى الألحان، وتتراقص في كل مكان. فمن سُمَانيات تغلغلن بين الزروع خشية الصيادين، وشحارير سود الجلابيب إن طارت هتفت، وإن استقرت صدحت؛ وسنونوات لا يبرحن في السماء مدوّمات، أو على البعوض هاويات، وأنواع العصافير، في زقزقة وصفير، كأنها تشكر لباعث الغيث آلاء المطر، وكأنها تدعو الانسان الى الأخضرين، لينعم بهما قرير العين

جلست في الدار أدير الطرف بجنان الغوطة وقراها، فبدت عن يميني رياض « النَّيْرَبين »، فذكرتني بأبيات وجيه الدولة ابن حمدان:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
فما ذكرتها النفس إلا استخفني ... الى بردماء النَّيْرَبين حنين
وقد كان شكي للفراق يروعني ... فكيف يكون اليوم وهو يقين ؟

وبدت جنوبها بساتين داريّا فقلت مع الصنوبري:

ونعم الدارُ داريّا ففيهـا ... صفا لي العيش حتى صار أريا
ولي في باب جيرون ظباء ... أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا

والتفتُّ الى دمشق فاذا بها غرقى في خضم أخضر كأنها ياقوتة في نثير من الزمرد، وبرز الجامع الأموي عظيماً جباراً بمآذنه الشاهقة وقبته العالية التي قال فيها نابغة بني شيبان من قصيدة غراء وصف بها ذلك الجامع الكبير:

وقبة لا تكاد الطير تبلغها ... أعلى محاريبها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب ... يضيء من نورها البناز والسَّيف

قلت رحم الله نابغة بني شيبان! فلو عاش في أيامنا هذه لا في أيام بني أمية لقال:

بل فكرُك بما يكون فيه هو يخفضك أو يرفعك. ومن الذي يملأ فكرَك غيرُك ؟

* * *

سرُّ سعادة المؤمن على ما يجدُ من الفقر والشقاء في هذه الحياة؛ أن في ضميره من فكرة الآخرة وجوداً إلهياً عظيما فيه الرضى الدائمُ عن الله، والصبرُ الدائم على قضاء الله، والأمل الدائمُ في رحمة الله. فكلُّ حِرمانِ الدنيا يذهب في الرضى فلا حِرمان، وكل مصائبها تقع في الصبر فتتحول معانيها، والأملُ الدائم في رحمة الله قوةٌ للقوتين

(طنطا)

---

(١) جبل دمشق المشرف عليها وعلى الغوطة
(٢) جمع غملوج، وهو الغصن الناعم من النبات
(٣) نورة الجوز وأضرابه

---

(١) لأن زهر الرمان مشخار
(٢) الجنبة صغار الشجر لا يعظم جرمها وإن شاخت